

العثمانيون والعرب

دراسة في المنظور التاريخي الحديث

رؤية معاصرة

أ. م. د أميرة حسين محمود

كلية التربية ، ابن رشد

قسم التاريخ

لاشك أن ظهور الدولة العثمانية كان إشارة إلى انتقال القوة الإسلامية من العرب إلى الترك، وعلى الرغم من عدم وجود أي صلة قرابة بين السلاطين العثمانيين والنبوي محمد (ص) ، فقد اتخذ السلطان سليم الأول لقب الخليفة لنفسه بعده فتح مصر عام (١٥١٧م) . ورغم احتفاظ عدد من السلاطين الذين جاءوا من بعد بلقب ((الخليفة)) إلا أن استخدامهم لهذا اللقب لم يكن محل اعتراف خارج نطاق النفوذ العثماني (١) .

كانت الخلافة إحدى الأسس التي ارتكزت عليها فلسفة الحكم العثماني . فقد عد العثمانيون دولتهم استمراراً للدولة العربية الإسلامية التي سقطت عام (١٢٥٨م) على يد المغول . مدعين بأنهم أصحاب رسالة تدعوهم إلى تحقيق أهداف الإسلام الكبرى ، تمت حدود الإسلام وحمايته من الإطماع الأجنبية (٢) . وبعد احتلال العثمانيون لمصر كما أسلفنا حرص السلطان سليم الأول على مقابلة آخر الخلفاء العباسيين (محمد المتوكل) .

وهنا يثار الجدل ويتمحور حول سؤال مهم جداً مفاده :

هل أن الخليفة العباسي الأخير تنازل عن الخلافة للسلطان سليم الأول ، وسلمه الآثار النبوية الشريفة المؤلفة من بئرق (٣) الرسول الكريم(ص) وبردته ؟ وهل هذا يعني انتقال الخلافة إلى آل عثمان الذين توارثوها حتى ألغيت عام (١٩٢٤م) .

ينقسم المؤرخون بين مؤيد ومعارض لانتقال الخلافة لاسيما وأن العثمانيين لم يستعملوا لقب الخليفة بعد إخضاعهم الوطن العربي وإنما أكتفوا بلقب ((السلطان)) . فمن المؤيدين لرواية التنازل كما يشير إليها الدكتور إبراهيم خليل احمد ، هم المؤرخ دوسون في كتابة ((لمحة عامة للإمبراطورية

العثمانية)) . لكنه لم يشر إلى المصدر الذي استند إليه . وأيضاً المؤرخ محمد فريد ولين بول ومارك سايكس ووليم موير وآخرون . مستنديين في قضية التنازل على الآثار النبوية الشريفة التي لا تنزل محفوظة في استانبول (٤) .

أما المصادر الحديثة والتي لا تؤيد تنازل الخليفة محمد المتوكل ترى بأن العثمانيون لا يملكون الشرط الواجب توفره في خليفة المسلمين وهو ((النسب القرشي)) . ولو عدنا إلى كتابات المؤرخ التركي احمد فريدون ، والتي تعتبر نوع من اليوميات التي تسجل ما قام به السلطان سليم في مصر ، لا تشير هذه الكتابات إلى حدوث التنازل ، أضف لذلك من أن نقود السلطان سليم لا تحمل لقب خليفة ، وحتى أن الخطباء في مصر ذكروا سليماً بلقب السلطان ، ويضيف توماس ارنولد ، بأن السلاطين العثمانيين لم يكونوا بحاجة إلى لقب الخليفة ، في الوقت الذي كان بمقدور السلطان سليم إرغام الخليفة المتوكل على التنازل (٥) .

ومهما يكن من أمر فإن الحديث عن تنازل الخليفة العباسي محمد المتوكل ، لا تستند إلى أساس تاريخي ، ولكن السلاطين العثمانيون استفادوا منها ، حيث ساعدتهم في استسلام المسلمين من كافة العناصر ، باعتبارهم يمثلون خلافة رسول الله(ص) ، ولكن في القرن الثامن عشر أخذ لقب الخليفة يحتل أهمية كبيرة بعد أن ظهرت علامات تدهور الدولة العثمانية (٦) .

لكن وكما هو متعارف عليه من أن كل حدث تاريخي يقيم بالنتائج ، لدينا من الأدلة على ما هو ايجابي وما هو عكس ذلك مما يجعلنا نقترح بعض الشيء لوضع الحلول لسؤالنا الذي أسقناه سلفاً وهل يمكننا أن نقول أن العثمانيين كانوا خلافة أم احتلال ..

احتل العثمانيون البلاد العربية قرابة (٤٠٠) عاماً (٧) .

كان فيها النظام الساند هو النظام الإقطاعي (٨) ، وطيلة حكمهم أثقلوا كاهل المواطن العربي بالضريبة حيث وصلت إلى نسبة ٧٠% من الناتج المحلي ، بينما كانت المدارس تعد على أصابع اليد (٩) ، والمصانع كانت شبه معدومة (١٠) ، لذلك كان نسبة العاطلين من السكان عن العمل كبيرة جداً الأمر الذي أدى إلى ارتفاع نسبة الفقر إلى ٩٥% (١١) .

أما أصحاب النظرة الايجابية وبغض النظر عن كونها خلافة أو سلطنة ، فيسوقوا لنا بعض الحقائق التي حدثت فعلاً . بان الدولة العثمانية قادت الفتوحات الإسلامية " العظمى (١٢) ، في أوروبا ، ونشرت الإسلام في الجزر والأقاليم التي لم يصلها الإسلام أيام الدول الثلاث ، الأموية، والعباسية ، والفاطمية (١٣) . بالإضافة إلى أنها ضمت بلاد الحجاز ومصر واليمن والشرق الإسلامي والشمال

الإفريقي وجنوب شرق أوروبا وغرب آسيا وأسيا الوسطى ، وسقطت على يديها القسطنطينية وحقت بشرى الرسول (ص) " ليفتحن القسطنطينية على يد رجل فنعم ذلك الجيش ونعم ذلك الأمير " (١٤) . كما حاصرت فيينا عاصمة الإمبراطورية النمساوية مرتين ووقفت عشرة أيام أمام التوسعات الإنكليزية والفرنسية والأسبانية والبرتغالية والصفوية والروسية والمجرية ، في الشرق الإسلامي ، فما كان من هؤلاء " ألا أن ينالوا من عظمتها وبأسها (١٥) . فأن دولة بهذا الاتساع كان من الطبيعي أن تحصل أخطاء كثيرة في مدة حكمها التي امتدت (٤٠٠) سنة كما أسلفنا . وحصل ظلم فيها للعرب والأقليات ، ولكن هذا لا يعطي الشرعية كما يذكر عبد العزيز نوار ، للعرب لمساعدة الإنكليز على طرد الأتراك من الوطن العربي فحولوا الخلافة الإسلامية إلى استعمار ، وساندوا الإنكليز بقيادة (الماسوني) (١٦) - لورنس العرب - (١٧) .

ويشير أصحاب النظرة الايجابية للدولة العثمانية بموقف السلطان عبد الحميد عندما أرسل إليه ثيودور هرتزل (١٨) راجياً إياه بأن يفتح أبواب فلسطين للهجرة الصهيونية فكان جوابه :

((أذهبوا وقلوا لهرتزل أن يتخذ تدابير أخرى في هذه القضية ، إذ لا يمكنني أن أحول ملكية شبر مربع واحد من الأرض لأنها ليست لي ، ولقد جاهد شعبي لأجل هذه الأرض وجعلوها خصبة بدمائهم)) (١٩) .

وأضاف أيضاً بأن فلسطين " ليست ملكي وحدي وإنما ملك المسلمين " (٢٠) .

وقبل ذلك يتخذ المؤرخون ذوي النظرة الايجابية من وصية الأمير عثمان لأبنة أورخان وهو على فراش الموت (٢١) ، بأنها منهجية شرعية سارت عليها الدولة العثمانية ، حيث يوصي ابنه : .

((يا بني إياك أن تشتغل بشيء لما يأمر به الله رب العالمين ، يا بني إذا واجهتك في الحكم معضلة فأتخذ من مشورة علماء الدين مؤثلاً ، يا بني أن بالجهاد يعم نور ديننا كل الأفاق ، يا بني نحن بالإسلام نعيش وللإسلام نموت)) .

وبذلك تشير هدى درويش في كتابها ((الإسلاميون وتركيا العلمانية)) ، بأن هذه الوصية كانت نبراساً لحكام وسلطين وعلماء الدولة العثمانية وتضيف بأنها أي الوصية كانت سبباً في تقدم الدولة العثمانية والوصول بها إلى أقصى ما يمكن أن تصله دولة من فتوحات وهي في نفس الوقت دلالة على تأسيس الدولة العثمانية على أسس الإسلام ومبادئه (٢٢) .

من هذا المنطق يذهب المودودي في كتابه " الإسلام في مواجهة التحديات"، بأنه لا يمكن مقارنة الدولة العثمانية بالاحتلال الأوربي الصليبي وما سعى إلى نشره الصليبيون بين أوساط المجتمعات الإسلامية من أفكار صليبية " فاسدة" (٢٣) .

وفي هذا المجال يتساءل المؤرخ محمد حرب بأنه كيف تسمى دولة إسلامية حكمت البلدان الإسلامية باسم الاستعمار ؟ وكيف تقارن بالاستعمار الصليبي البغيض الذي سعى إلى الاستيلاء على خيرات المسلمين و القضاء على الإسلام والعروبة (٢٤) . في حين يرى احمد بركات بأن تغذية عقول الأجيال من قبل بعض المؤرخين "الفاستدين" . كما أسماهم . فكرة أن العثمانيين احتلال واستعمار (٢٥) .

من هذا يظهر بأن الخلافة العثمانية تعرضت لكثير من الإهانات بشكل غريب عن علم ودراية من عرب وعجم أو من الذين شربوا العلمانية وعداء الإسلام (٢٦) .

وبهذا نجد أن المؤرخ احمد الجنابي في كتاب " الاستعمار العثماني " ، يرى أن مصطلح الاستعمار التركي ، ما هو إلا محض افتراء مقصود سوق للعرب من قبل بعض العلمانيين ، لذلك وضعت خطة طرد الأتراك من الأمصار العربية بدعم مباشر أو غير مباشر من الاستعمار الغربي مقابل مشروع أسمه الدولة العربية التي لم تر النور حتى يومنا هذا (٢٧) . وأيضاً من نتائج تخلي العرب عن الخلافة العثمانية هي سقوط أعظم مقدسات المسلمين ونعني بها القدس بيد بريطانيا وسلمتها الأخيرة مع الأراضي الفلسطينية إلى اليهود ، وروجت لليهود فكرة أرض الميعاد ، ثم ما مني به العرب من انقسام حسب اتفاقية سايكس - بيكو بين إطماع بريطانيا وفرنسا وبمباركة روسيا وأيضاً تشكيل العالم العربي الشرقي بحدوده المعروفة اليوم المتنازع عليها إلى هذه اللحظة إذا ما أضفنا تنصيب أذنان للمستعمر الأوربي والذي يخدم بشكل مباشر أو غير مباشر الصهيونية في توسعها على حساب الأراضي العربية محققة حلمها في دولة تمتد من "النيل إلى الفرات" (٢٨) .

لذلك أجد نفسي أذهب إلى ما ذهب إليه المؤرخ عبد الله دهيش ، بأن التاريخ قد ظلم هذه الخلافة الإسلامية ، وذلك لأن تاريخها كتب بأيدي أعدائها سواء من الأوربيين أو من العرب الذين تزروا على مناهج الغرب وظنوا أنها احتلال لبلاد العرب (٢٩) . لاسيما وأن التاريخ يؤكد بأنه ليست ثمة إمبراطورية قادت نظاماً عالمياً ، قد تعرضت للظلم بتشويه التاريخ ، أكثر من الإمبراطورية العثمانية ، وقد يرجح ذلك بأن الدول التي تأمرت على إسقاطها وجدت في الإمبراطورية العثمانية تمثل عظمة النظام الحضاري الإسلامي ، ولهذا أدخلت فيه التزييف والافتراء (٣٠) .

المصادر

- (١) ريتشارد هرير دكمجيان ، الأصولية في العالم العربي (العراق ، سوريا، مصر ، السعودية ، الخليج) ، ترجمة عبد الوارث سعيد ، المنصورة ، ١٩٨٥ ، ص ٣٩ .
- (٢) إبراهيم خليل احمد ، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ١٥١٦-١٩١٦ ، الموصل ، ١٩٨٣ ، ص ٦٣ .
- (٣) علم .
- (٤) إبراهيم خليل احمد ، المصدر السابق ، ص ٦٤-٦٧ .
- (٥) لزيادة المعلومات يراجع :
- توماس ارنولد ، الخلافة ، ترجمة حسن حيدر اللبناني ، بيروت ، ١٩٦١ ؛ إبراهيم خليل احمد ، المصدر السابق .
- (٦) راجع الدكتور إبراهيم خليل احمد ، المصدر السابق .
- (٧) يلماز اوزوتتا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ط ١ ، ج ١ ، اسطنبول ، ١٩٩٢ ، ص ٣ .
- (٨) القرمانلي ، سلاطين آل عثمان ، ط ١ ، دمشق ، ١٩٩٨ ، ص ٦٢ .
- (٩) قيس جواد العزاوي ، الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط ، ط ١ ، دمشق ، ١٩٩٤ ، ص ١١٣ .
- (١٠) محمد رفعت ، أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٩٤ ، ص ٦٤ .
- (١١) ثريا شاهين ، دور الكنيسة في هدم الدولة العثمانية ، ط ٤ ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٣٦ .
- (١٢) هكذا ورد في النص .
- (١٣) محمد صفوت ، فتح القسطنطينية وسيرة السلطان محمد الفاتح ، ط ١ ، بيروت ، بلا ، ص ٧ .
- (١٤) [http \ ar. Islamway . net](http://ar.Islamway.net)
- (١٥) علي حسون ، العثمانيون والروس ، ط ١ ، القاهرة ، بال ، ص ١٤٥ .
- (١٦) هكذا ورد في النص .
- (١٧) عبد العزيز نوار ، الأتراك العثمانيون ، الشعوب الإسلامية الفرس ، مسلموا الهند ، ط ١ ، القاهرة ، ١٩٩١ ، ص ٣١٠ .

- (١٨) ولد في بودابست في المجر ١٨٦٠/٥/٣ ، ونجح في عقد أول مؤتمر صهيوني في مدينة بال في سويسرا في التاسع والعشرين من شهر آب (أغسطس) ١٨٩٧ .
- (١٩) جميل بيفون ، تاريخ العرب الحديث ، ط ١ ، عكاشة ، ١٩٩٢ ، ص ١٠٠ .
- (٢٠) زكريا سليمان ، قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٩١ ، ص ٢٠٠ .
- (٢١) علي محمد الصلابي ، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ، ط ١ ، بيروت ، ٢٠٠٤ ، ص ٤٦ .
- (٢٢) هدى درويش ، الإسلاميون وتركيا العلمانية ، ط ١ ، دار الأفاق العربية ، ١٩٩٨ ، ص ٢٣ .
- (٢٣) أبو علي المودودي ، الإسلام في مواجهة التحديات ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٩٦ ، ص ٧٧ .
- (٢٤) محمد حرب ، السلطان عبد الحميد الثاني ، ط ١ ، دمشق ، ١٩٩٠ ، ص ٨٦ .
- (٢٥) احمد بركات ، حركة الجامعة الإسلامية ، ط ١ ، بيروت ، ٢٠٠٤ ، ص ١١٣ .
- (٢٦) عبد الله الصوفي ، العثمانيون والمسلمون ، ط ٢ ، بيروت ، بيروت ، ص ٢٣٣ .
- (٢٧) احمد الجنابي ، الاستعمار العثماني ، ط ١ ، بغداد ، ١٩٨١ ، ص ٥ .
- (٢٨) احمد ياغي ، العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ط ٤ ، مصر ، ١٩٩٧ ، ص ٨٥ .
- (٢٩) عبد الله دهيش ، قيام الدولة العثمانية ، ط ٢ ، مكة المكرمة ، ١٩٩٥ ، ص ٣٥٤ .
- (٣٠) للزيادة في المعلومات راجع على سبيل المثال :
أكمل الدين حسان أوغلو ، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ، ترجمة صالح سعداوي ، استانبول ، ١٩٩٩ ، ص ٧٣ - ٧٤٢ .

Abstract

Caliphate was one of the bases on which the philosophy of Ottoman rule was based. They regarded as their state as a contributions of the Arab-Islamic State which had fell in (١٢٥٨ A.H.) on the hands of Mogul.

Historians are divided between a supporter and oppose of the movement of the caliphate system and did not use the title "Caliph" after they subjected the Arab homeland. They were sufficed to the use of the title "Sultan". Is Ottoman claim of caliphate is only a claim or is they used caliphate as an established system. Many historians repeated what their enemies said about counterfeiting.